معرض الرياض.. طموح بتوسيع أفق الرأي العام

في الأعوام السابقة التي كانت تقام فيها معارض الكتب في الرياض كانت الأجواء مشحونة بالترقّب، وكان مجرد الإعلان عن قرب موعد إقامة المعرض، كانت تثار في الفضاء العام أسئلة اعتاد الناس طرحها في كل مرة يقام فيها المعرض، من قبيل: كيف سيكون حضور المحتسبين؟ هل يكتفي بالإرشاد والنصيحة أم يصطدم مع الجمهور بفعل تدخله العنيف، في بعض الأحيان، حول لباس المرأة، أو الأحاديث الجانبية التي تدور بين الجنسين أو بينهن وبين أصحاب دور النشر، أو على منصات توقيع الكتب، أو حتى في أحيان أخرى تدخلهم في منع هذا الكتاب أو ذاك.

وقد حدثت مواقف وقصص كثيرة حول مثل هذه التدخلات، وكأن ظاهرة الاحتفاء بالكتاب والكتب عند هؤلاء كانت بمثابة الخطر الذي يقف على أبواب القيم الثابتة للمجتمع، والذين هم حراسه المؤتمنون على سلامته.

كل ذلك الآن أصبح من الماضي، تزور المعرض فلا ترى شيئاً من تلك المظاهر السابقة، وكأن ثمة قطيعة حدثت، انتقل فيها المجتمع من طور إلى آخر، أو من ضفة إلى أخرى، لا تتبين من خلالها سمة التحولات التي مهدت لهذا الانتقال.

هناك مقولة لصديقنا الروائي والباحث العراقي لؤي حمزة عباس، وهي عنوان على أحد كتبه «النوم إلى جوار الكتب» استحضرتها وأنا أتجول في أرجاء المعرض، فمن فرط التناغم القوي بين حضور الكتاب من جهة والأجواء المصاحبة لهذا الحضور، لا تستطيع أن تكبت رغبتك في النوم بجوار هذه الكتب، لأن ما لا تستطيع تحقيقه واقعيا سيتم تحقيقه بآلية الأحلام، فكل مثقف وكاتب على ما أظن تكون بداخله رغبة دفينة، في الاطلاع على أكبر قدر ممكن من الكتب المعروضة، حتى لا أقول جميع الكتب، بل الرغبة تذهب إلى الطموح في تصفح كل كتاب ومحاولة تلمسه باليدين وعبور صفحاته بالعينين، وحتى إذا استفحل الأمر وتمددت تلك الرغبة على مساحات شاسعة في داخلك، ستذهب إلى حد تشمم رائحة الورق والكتاب بين يديك.

هل ما أقوله نوعا من المبالغة، بحكم ارتباطي بالكتاب نفسياً وتاريخياً وثقافياً؟!

قد يكون ذلك أحد المبررات التي تبرر سلوكنا إزاء الكتاب. لكن ثمة جوانب أخرى تجعل مثل هذا السلوك

متحققاً في الكثير من المواقف والأحداث، فالأحداث التاريخية المتعلقة بتاريخ الكتاب، على الأقل في تاريخنا العربي الإسلامي، فيها الكثير من الشواهد التي تدل دلالة صريحة على أن الارتباط بالكتاب عند الكثير من الكتاب والمؤلفين يتجاوز هذه الرغبة الدفينة إلى ما هو أبعد، فهناك خبر عن أحدهم يروى عنه أنه أصابه الجنون عندما علم أن داره قد احترقت عن بكرة أبيها بما فيها كتبه. هذا الجنون ليس مجازاً هنا، بل تجسد واقعاً حتى مات. وهذا آخر كان قد أدّعى الجنون؛ ليبتعد عن المجتمع وعن أهله، حتى يتفرغ للعيش مع الكتب.

وهكذا فكتب التراث مليئة بمثل هذه القصص والأحداث التي تؤرخ إلى ذلك الارتباط العجيب والفنتازي في أغلب الأحيان بالكتاب.

لكن ثمة عامل آخر، يجعل من هذا التناغم أكثر تأثيراً وقوة في فضاء المجتمع بعمومه، هو قدرة معرض الرياض للكتاب حاليا كظاهرة ثقافية اجتماعية على فتح مسارات متعددة للتواصل المعرفي والاجتماعي في الفضاء العام بين مجالات عدة فنية وإبداعية وذوقية وعلمية وفكرية واجتماعية، لم يتح لها أن تتواصل بطريقة مقصودة وموجهة إلا من خلال هذا التجمع الكبير.

وما أعنيه هنا بالدرجة الأولى هو كمية الفعاليات المصاحبة والمتنوعة التي أعطت للثقافة مفهوماً ذا طابع شمولي وأوسع، بحيث أصبح مجال الطهي والأزياء والفن المرتبط بالرقص جزءاً أصيلاً في نظرتنا للثقافة المحلية.

وهذا الأمر في حد ذاته يوسع من رغبة الناس في الاطلاع والتعرف على بعض بإزاء رغبتهم في الاطلاع على الكتب في نفس الوقت، ويتيح الفرصة تلو الأخرى في صنع رأي عام لا تتوقف قضاياه على مسائل تعد على أصابع اليد كما كان سابقاً كقضايا الحداثة والتقليد أو القضايا الفقهية التاريخية وهكذا، وإنما تذهب همومه وقضاياه ومناقشاته إلى ما هو مشترك بين الناس في قيمه الأخلاقية والإبداعية والاجتماعية.

وهذا هو الدور الكبير الذي هو بمثابة رغبة الرغبات التي تحققه مثل هذه التظاهرات الاجتماعية الثقافية، وعلى رأسها معرض الرياض الدولي للكتاب.